

أمل جديد لبابل القديمة

جون نوبل ويلفورد

صحيفة نيويورك تايمز

22 مارس 2010

New Hope for Ancient Babylon

By John Noble Wilford

The New York Times Newspaper

ترجمة: علي الحارس

- كاتب متخصص في الشؤون العلمية في صحيفة نيويورك تايمز.
- حاز على جائزة بوليتزر الصحافية مرتين (للكتاب في الشؤون العلمية).
- إجازة في الصحافة من جامعة تينيسي.
- ماجستير في العلوم السياسية من جامعة سيراكيوس.
- شهادتا دكتوراه (فخرتان).
- أستاذ زائر ومحاضر في عدد من الجامعات الأمريكية.



جون نوبل ويلفورد

إن الخطر الذي ينبغي تداركه أسرع من غيره في عملية صيانة آثار بابل القديمة. المدينة التي تقع فيها واحدة من عجائب العالم القديم السبع. يتمثل في تشرب الأرض للماء إلى الحد الذي يدمر ما بقي في عراق اليوم من مدينة عظيمة ترجع إلى عهد الملك نبوخذنصر الثاني.

ليست هذه المشكلة حديثة العهد. حيث واجه نبوخذنصر نفسه مشاكل الماء قبل 2600 عام. كما إن يد الإهمال والترميم الطائش والنهب قد فعلت فعلها في العصر الحديث. ولكن علماء الآثار والمختصين في صيانة التحف القديمة يقولون بأن من غير الممكن عمل أي شيء مفيد فعليا لتصحيح ما حدث إذا لم يتم السيطرة على مشكلة المياه أولا.

وقد جاء في إحدى الدراسات الحديثة. وتدعى مشروع (مستقبل بابل). توثيق للضرر الذي يحدثه الماء الناتج عن نهر الفرات وأنظمة الري المجاورة. فالأرض مشبعة بالماء تحت سطح مواقع مثل بوابة عشتار وما كان في السابق (الحدائق المعلقة). إحدى العجائب السبعة؛ والطابوق يتفتت. والمعابد تنهار. حتى أن برج بابل. الذي تحول إلى أنقاض منذ

أمل جديد لبابل القديمة

أمد بعيد. تحيط به بركة من الماء. وفي لقاء ضم المسؤولين عن هذا المشروع العالمي في نيويورك هذا الشهر، صرح المشاركون بأن أية خطة ترمي إلى استرجاع مكانة بابل كمقصد للسياح وموقع لأبحاث علماء الآثار ينبغي أن تتضمن بند السيطرة على مشكلة المياه كأولوية قبل أي شيء آخر.



شبكة لتصريف المياه بالقرب من بوابة عشتار

تم البدء بدراسة (مستقبل بابل) العام الماضي. وهي تهدف إلى إعداد خطة كبرى للمدينة القديمة، ويشرف على هذه الدراسة صندوق الأوبد العالمي بالتعاون مع الهيئة العراقية للآثار والتراث، وبمنحة مقدارها 700 ألف دولار من وزارة الخارجية الأمريكية يتم تمويل الدراسة الأولية (ومدتها عامان) والخطة التمهيديّة الإدارية، وقدرت رئيسة صندوق الأوبد العالمي بوني بيرنهام (Bonnie Burnham) أن المشروع بأكمله سيستغرق خمسة إلى ستة أعوام. وقالت: «إن هذا دون شك هو البرنامج الأكثر تعقيدا من بين البرامج التي قمنا بتنظيمها».

أمل جديد لبابل القديمة

كما عبر عدد من علماء الآثار عن قلقهم مما أسموه البداية البطيئة للمشروع. ولكن أعضاء المشروع قالوا بأنهم عانوا من مشكلات كبيرة في إقناع الخبراء الأجانب بالذهاب إلى العراق واستخراج التصاريح اللازمة لهم ولمعداتهم من أجل العمل هناك.

بالإضافة إلى سقوط آثار بابل فريسة لتقادم الأزمان. هنالك التدمير الذي عانته خلال التاريخ الحديث؛ فقد لاحظ علماء الآثار الألمان. الذين كانوا أول من قام بدراسة قيمة في هذا الموقع الأثري قبل الحرب العالمية الأولى. وجود انتهاكات مدمرة للمكان بسبب مياه الري التي تأتي من نهر الفرات. ويتفق مع ذلك حاليا ماغواير غيبسون (McGuire Gibson). وهو مختص في آثار بلاد الرافدين من جامعة شيكاغو وليس له ارتباط بالدراسة السابقة. ويرى بأن المياه هي «المشكلة الكبرى» وأن هذه المشكلة تفاقمت خلال السنوات القليلة الماضية عندما تم حفر بحيرة وقناة مائية كجزء من حملة لاجتذاب السياح. ويشير غيبسون إلى أن نبوخذنصر نفسه تعامل مع التجاوزات المائية بتشبيد أبنية بأقصى ما يمكن من الارتفاع فوق أكوام الأنقاض القديمة.

لقد أشارت تقارير أول المنقبين الألمان. يقودهم روبرت كولديوي (Robert Koldewey). إلى أنهم وجدوا دمارا واسعا تسبب به الماء للأبنية المشيدة من الطابوق الطيني. إضافة إلى اقتحام القرى والمزارع أسوار المدينة الأصلية. حيث نقل الأهالي الكثير من الطابوق والأحجار بحيث لم يتبق شيء تقريبا من الزقورة التي تعرف بـ«برج بابل» في نصوص هيرودوتس والكتاب المقدس. كما إن الألمان أنفسهم نقلوا بوابة عشتار المزخرفة إلى أحد متاحف برلين. ثم جاءت فترة سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي التي شهدت إعلان الرئيس العراقي صدام حسين نفسه وريثا لعظمة نبوخذنصر. فبنى في بابل قصر مهيبا سيرا على خطى «أسلافه». حتى أنه تبنى طريقة هؤلاء الأسلاف في طباعة اسمه على الطابوق المستخدم للترميم. وهو ما أثار الدهول لدى علماء الآثار. فالقصر الجديد وعدد من الترميمات تكاد لا تكون أصلية. ومع ذلك فإنها مهيمنة على المكان. وفي هذا يقول المدير المساعد في المشروع جيف ألين (Jeff Allen) إن القصر الذي بناه صدام هو قضية أخرى.

أمل جديد لبابل القديمة

فالمشكلة الحقيقية تكمن في «كيفية تحقيق التوازن بين سلامة الموقع وبين استخدامه لجذب السياح» باعتبار أن العراق يعول على أن تكون بابل مصدرا للدخل السياحي الأجنبي في المستقبل. ويرى ألين، وهو مستشار أمريكي في صيانة التراث الثقافي ويعمل في القاهرة. أن ملايين الدولارات تلزم لهدم القصر أو تحويله إلى مركز سياحي وأن «ذلك لا يزال ينتظر الدراسة من قبل خبراء آخرين». وذكر بأن أحد الاقتراحات الطريفة تطرقت إلى أن القصر سيكون موقعا ممتازا لإقامة نادٍ للقمار.

أما الدكتور غيبسون فيؤيد ترك القصر وشأنه. مشيرا إلى أنه بني وفق مخططات تركها علماء الآثار الألمان. ويقول: «وبهذه الطريقة يمكنك أن تتجول حول بناء يمثل الهندسة القديمة. وإلا فلن ترى شيئا سوى كومة من الأنقاض». كذلك فإن اليزابيث ستون (Elizabeth C. Stone)، وهي عالمة آثار من جامعة ستوني بروك (Stony Brook) في نيويورك وعلى اطلاع بالموضوع. تؤيد الجهود الساعية إلى إعادة فتح الموقع أمام السياح. وبالأخص العراقيين منهم. وتقول: «الموقع قريب من بغداد. وهو من المواقع التي اعتدنا على رؤية العراقيين يزورونها للإحساس بماضيهم».

هنالك أضرار أخرى تكبدها الموقع خلال حرب العراق عام 2003. حيث انتشر النهب في هذا الموقع وفي غيره. كما إن الجيش الأمريكي احتل الموقع عدة أعوام وحماه من النهب لكنه ترك جروحا أخرى. حيث تقول الدكتورة ستون أن حوالي كيلومتر مربع من التربة السطحية تم إزالتها بطريقتها أو بأخرى. ومعها الآثار التي تواجدت فيها. وعن ذلك تقول ليزا اكيرمان (Lisa Ackerman)، نائب المدير التنفيذي للموقع: «لا شك في أن الجيش لم يخدم المكان أبدا. فقد نقل الكثير من الأتربة حول المكان. ولكن الأذى الناتج يمكن إصلاحه إلى حد كبير».

لقد تمت إعادة الموقع إلى سيطرة العراقيين منذ أكثر من عام. ويقول كل من اكيرمان وألين أن المشروع انتهى من عملية المسح تماما. وأن الترميم جارٍ في متحفين. وعلى

أمل جديد لبابل القديمة

الرغم من أن العراق لديه أعداد كبيرة من الآثاريين المدربين. يقول العالمان أن هنالك حاجة ماسة لتدريب أعداد أخرى على صيانة الآثار. واستحضار مهندسي بناء وعلماء مياه للتعامل مع المشكلة المائية.